

المحاضرة رقم 02

مفهوم الأدب

لا تزال كلمة أدب تثير الكثير من التساؤلات النظرية خاصة لدى أصحاب نظرية الأدب المحدثين، لأن مسألة المفهوم طرح في العهد القديم وأقصد به العصر الجاهلي، وخاصة لدى النقاد القدامى وما كتبوه في مؤلفاتهم وأمهات الكتب القديمة ككتب الأدب والنقد والنحو والبلاغة.

ويعتبر "رينه ويليك" من أول الأدباء الذين ناقشوا هاته المسائل والمفاهيم، يقول "إن الأدب كل شيء قيد الطبع" بمعنى أن لفظ كلمة أدب تمت إلى الحياة العامة بوشيجة تامة، وبأنها صارت تكتب للناس عامة فيقرأونها متلهفين، ويقول "إدوين غرينلو": "إن كلمة أدب لها امتداد داخل الحضارة الإنسانية" فالفروق سانحة بين الأدب وكل ما هو حضاري، طالما أن الدراسات الأدبية تعترف فقط بما يكتب على الأوراق.

أما النتاج الحضاري فأوسع منه بكثير، لأنه يشمل جميع مجالات حياة الأفراد وما يفكرون فيه، وما أنجزوه على مر العصور من انجازات تفوق التصورات البشرية، لأن الفكرة التي يرومها الكاتب تختصر في أن جمالية الأدب تحضر في ما يسمى بالغنائية والدرامية والقصة والرواية، باعتبارهم أجناسا أدبية، صارت تعزز الفعل الثقافي والمسرحي.

ولعل تطور الأجناس الأدبية طبيعة أدبية تميل إلى تعزيز الثقة بين المتلقي والمؤلف، لأنها حلقة من حلقات الفكر الأدبي الذي يشتغل عليه المشهد الثقافي ويتم توصيله إلى عامة القراء، عن طريق فعل الكتابة الذي وُكل به شريحة من الأدباء والنقاد، وإن من أهم الموضوعات التي يشير عليها هؤلاء هي الحديث عن قضايا الشعب والأمة وفضح المؤامرات التي تحاك ضده لتعرية الحقيقة وتوطئتها داخل المنظومة الاجتماعية.

لاشك أن للخيال دوره في صناعة الأدب وتكوينه،فالتخيل الإبداعي يوحي لنا بتطابق الواقع عن طريق تلوين الصورة وفهمها أدبيا، لكن المقياس الذي يحكم هاته المسائل المستعصية هو مقياس الصدق والكذب،فيهما ندرك أصل الأدب ونقرأ أجناسه ونتلهف لفهمه ونشره بين عامة القراء.

فالأدب خيال يصدر عن رؤى الكاتب أو الشاعر لفهم مدركات الواقع الحسي وصبغه بألوان الطيف الخيالي والإبداعي.

ولكن هل كل ما يُكتب أدبا...؟

نجيب عن هذه التساؤلات، ونقول إن الكتابات النثرية وأقصد بها الروائية والقصصية تحتاج إلى الخيال الواسع ليفيظ عليها من نفسه وروحه،فالشعر مثلا نجده في أكثر الحالات غارقا في شعريته، كالمسرحية الغنائية أو قصائد المحدثين التي تتفنن في محاورة الواقع وجذبه إلى السامع.

أما الكتابات الفلسفية والتاريخية والطبيعية فلا خيال فيها، لأن المنطق يتحكم في لغتها وعناصر جملها، فتأتي سليمة وعلمية، كالعلوم والفيزياء والهندسة، التي تحتاج إلى رسومات ورموز، فالمعارف الإنسانية توحد جميع البشر بفعل عناصرها ومكوناتها الرمزية التي اتفق عليها.

كما قد يتبادر إلى الأذهان أن التعريف الخاص بكلمة أدب قد يكون سليما طالما قصص الأطفال خيالية ولكنها مملآى بالرسوم المتحركة والصور المزينة بالألوان لأنها موجهة إلى شريحة لم تعرف بعد مصطلحات الأدب ولن تتعامل مع تقنياتها الصعبة وتلويقاتها.

إن التمييز بين اللغة العلمية والأدبية أعطى للأدب دلالات شتى بحيث أصبح من الممكن التطابق بين اللغتين،لأن الإشارة تومئ إلى فكر صاحبها الذي يتحدث بها ويسير بها، كما أن الدلالة الأدبية تحتم على القارئ التفرقة بينهما على الرغم من أن الأدب يحتاج إلى كليهما للتعبير عن مكونات النفس البشرية وعلوم الحياة بطريقة تعبيرية.

إنه من السهل أن نميز بين اللغة الأدبية ولغة العلمية ، فإنه من الصعب التمييز بين اللغة الأدبية ولغة الحياة اليومية أي الدارجة اليومية المستعملة في حياة الناس العاديين، فهل هؤلاء يقولون أدبا؟ فاللغة اليومية لها خصائصها الأدبية ، كما تشترك معها في الوظيفة التعبيرية المشاركة بين القراء ، إلا أن اللغة الأدبية تختلف عن الاستعمالات المتعددة للغة اليومية ، وتتفوق في استغلال مصادر اللغة بكثير من التعمد والتنظيم .

فالشعراء مثلا حين ينظمون أشعارهم ويوظفون الخيال، فإن الحديث عن ظروف حياتهم باتت من الضروري الحديث عنها ومكاشفتها أمام القراء العرب، ليتسنى لهم الاطلاع على حيواتهم وفهمها جيدا، لأن الحياة اليومية وأوضاعها الإنسانية باتت ذات شأن عظيم لتدرك حياة الشاعر.

إن نصوص الأدب تتضمن " تعبيرات عادية " مثل الدارجة اليومية التي تجري على ألسنة الناس وهي أكثر ما تكون في عالم السرد وفي الكتابات الشعرية والنثرية ، كل هذه الألوان الأدبية والشعرية يمكن أن توظف لغة الحياة اليومية، بل يمكنها أن توصل المعرفة الحياتية إلينا عن طريق الأدب.

لاغرو أن يصبح الأدب كل كتابة تنتمي إلى النثر أو الشعر بجميع أغراضه أو الرواية والقصة والدراما والتراجيديا أو الحكمة، أما ما عدا ذلك كالكتابات التاريخية والفلسفة وغيرها من علوم الطبيعة والحياة فهي خارج عن مضمار الأدب، طالما أن المعرفة لا تقتصر على الأدب فحسب. هناك بعض الكتابات التي تنتمي إلى الأجناس الأدبية من مسرح وشعر ولكنها تخرج عن نطاق مصطلح الأدب ، وهذه الأنواع هي:

1. الكتابة التي لا صاحب لها : كالأدب الذي ننسبه إلى الشعب كالسير والأغاني والأمثال.

2. الكتابات التي لم تنجح في إختبار الزمن ، مثل القصائد التي نطالعها اليوم لأننا لا نعرف هل يحكم الزمن عليها أن تظل أم تختفي.

مفهوم الأدب حديثاً عند العرب:

يقول طه حسين إن الأدب " فن جميل يتوسل بلغة " ومعنى ذلك أن الأدب يدرك في الفنون مثل النحت والرسم والرسم التشكيلي والفنون التصويرية ، وهي نظرة شبيهة بفكر أرسطو حين تحدث عن هذه المفاهيم فيما يسمى بالفن الشعري، فهو يرى أن الأدب فن كغيره من الفنون ، وهذه نظرة توسع من دائرة ادراكاتنا الشعرية والفنية في فهمنا للأدب وتذوقنا له من حيث النصوص المشكلة له، ويمكن أن نقسمه إلى فن يوظف الكلمة وفن لا يوظف الكلمة كعلم الجمال.

وإن الصلة بين هذه الفنون والأدب كامن في أسس ما يسمى " الأدب المقارن الأمريكية " التي ترى أن من موضوعات الأدب المقارن هي دراسة الصلة بين الفنون ، وهذا هو الأمر الذي يميز هذه المدرسة الأمريكية عن غيرها من مدارس الأدب المقارن وخاصة الفرنسية التي تحصر نطاق المقارنة في نطاق الأدب .

إن طه حسين حين عرف الأدب وربط علاقته بالفن كان يشير إلى النظرة الأوربية الجديدة التي لا تفرق بين الآداب العالمية، ويبق فنا جميلا يتحدث عنه الأدباء والنقاد آملين الوصول إلى تعريف دقيق له، على الرغم من أن الفلاسفة القدامى ربطوا بين جميع الفنون ورأوها خادمة للإنسان، بفعل المحاكاة.

فالأدب نوعان أدب رسمي وأدب عامي.

الأدب الرسمي:

هو الأدب الذي ينتقل إلينا عبر اللغة الفصحى المقروءة مثل الدواوين وهو أدب ينشأ في كنف السلطة الحاكمة، فهو يوظف اللغة التي تسنح له بالظهور وكسب قلوب الرعية ، لذلك ارتبط بأدب البلاط الذي بهي اخذ مركزه ووجهته من أدباء يأملون منه كسب قوتهم، فيقتربون من الراعي وصاحب القرار.

الأدب الشعبي: العامي.

هو الأدب الذي تنتجه الجماعة شفاهة، ثم ينتقل بين القراء، فيحرص الناس على نشره بينهم، فيرون فيه أدبا شعبيا قائما على عامة الناس ثم تتدخل الذاكرة الشعبية فتحفظه من الضياع والزوال عن طريق الحفظ ويتداولونه بينهم.

إن المميز في هذا النوع من الأدب أنه يرتبط بقائه طول الدهر، وما جهل صاحبه فيستبعده الناس عن التداول ونطاق الأدب، ويبقى الأدب الشعبي مرتبط بالجماهير والشعوب التي تعمل على رعايته وتعليمه للأجيال المثقفة فتأخذ منه ما رقت وتدع ما استهجن.

ملاحظة:

هذه بعض الكتب التي يمكن للطالب أن يستعين بها في فهم ما استعصي عليه. وهي كالتالي:

حامد حفني : تاريخ الأدب الجاهلي.

مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب .

شوقي ضيف : تاريخ الأدب الجاهلي.